تقرير

شوقي عشقوتي
lionbars@hotmail.com

القصة الكاملة لـ"ناغورني كاراباخ" (أرتساخ) عندما يصطدم التاريخ بالجغرافيا

ما حصل في اقليم ناغورني كاراباخ او "ارتساخ" هو اخر نسخة عما عاناه ويعانيه الشعب الارمني في صراعه من اجل الحياة والوجود الحر. مرة جديدة يدفع الارمن ثمن التعارض والاصطدام بين التاريخ والجغرافيا. التاريخ في صفهم وهم سكان الارض من الفي سنة

الجغرافيا تخذلهم، والارض بموجب القانون الدولي تابعة لاذربيجان التي عرضت عليهم اما الاندماج او الرحيل، فاثروا الرحيل الى ارمينيا، حيث لا تعارض بين التاريخ والجغرافيا.

ما حصل مع ارمن شعب كاراباخ يحصل مع كل شعب تطحنه لعبة الامم ويكون من ضحاياها وفريسة لها. وفي هذه الجولة الخاطفة التي كانت اخر الجولات، ربحت اذربيجان بدعم وتواطؤ من المجتمع الدولي.

حتى عام 1990، كانت مقاطعة ناغورني كاراباخ، ذات الغالبية الارمينية، منطقة حكم ذاتي تابعة لجمهورية اذربيجان السوفياتية، الى ان اعلنت، بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، استقلالها عن باكو في موازاة تقدم المقاتلين الارمن - بدعم من الجيش الارميني - للسيطرة على اجزاء تقع شرقي كاراباخ، كما كامل المنطقة الفاصلة بين ارمينيا والمقاطعة، والتي تعد، وفق القانون الدولي، ارضا اذربيجانية. واستمر الوضع على حاله حتى عام 2020، عندما شنت اذربيجان، بدعم من تركيا، "الحرب الوطنية الكبرى" في 27 ايلول، والتي استمرت 44 يوما، وانتهت الى تراجع القوات الارمينية عن كامل المناطق التي سيطرت عليها ابان تفكك الاتحاد السوفياتي، فيما بسطت باكو سيطرتها على النصف الشمالي من كاراباخ، وبقي النصف الجنوبي (عاصمته ستيباناكرت)، بضغط من روسيا، في يد الارمن، مع الابقاء على ممر واحد يصل المقاطعة بارمينيا، هو ممر لاتشين.

خاض البلدان حربين للسيطرة على ناغورني كاراباخ، اخرهما في عام 2020 وانتهت بهزيمة ارمينيا وتحقيق اذربيجان مكاسب ميدانية، وبوقف هش لاطلاق النار برعاية موسكو. لكن وسط انشغال الكرملين في غزوه لاوكرانيا، تفاقم تدهور الوضع في ناغورني كاراباخ، لاسيما بعدما اتهمت ارمينيا اذربيجان بتأجيج ازمة انسانية بعدما اغلقت باكو العام الماضي ممر لاتشين، وهو الطريق الوحيدة التي تربط المنطقة بارمينيا.

وعلى رغم ان معاهدة دفاع مشترك كانت تربط ارمينيا بروسيا، غير ان وصول حكومة غربية الهوى، بزعامة نيكول باشينيان، الى السلطة في يريفان عام 2018، اثار انزعاج الروس، الذين امتنعوا، لدى نشوب الحرب الارمينية - الاذربيجانية، عن تطبيق معاهدة الدفاع المشترك، على اعتبار ان الاخيرة تشمل اراضي ارمينيا الرسمية، فيما المعارك تدور على اراض تابعة لاذربيجان. مع هذا، امسكت موسكو بطرف الخيط، من خلال تولي الحرس الروسي مهمة الاشراف على الخط الحدودي الفاصل بين القوات الاذربيجانية وتلك الارمينية، وعلى ممر لاتشين، وكاراباخ الجنوبية.

بدت رهانات باشينيان على دور اميركي فاعل وداعم لارمينيا في غير محلها. فقد التزمت موسكو الدفاع عن يريفان والحفاظ على الوضع كما هو حين كانت فيها سلطة موالية لموسكو، او على مسافة نسبية من الغرب. لكن الوضع تغير عندما جاءت سلطة معادية لروسيا بزعامة باشينيان. وعندما قرر هذا الاخير القيام بمناورات مشتركة مع اميركا، انما استفز روسيا، من دون ان يربح رهان استعادة كاراباخ، لان الولايات المتحدة، في المقابل، معنية اكثر ببقاء اذربيجان حليفة قوية لها ولاسرائيل، فيما لا تهدف سوى الى استفزاز روسيا وارباكها في جبهة جديدة، بعد اوكرانيا، مستخدمة باشينيان اداة لها في هذا التوتر الذي خرجت منه يريفان خاسرة.

اثارت المناورات الارمينية ـ الاميركية المشتركة حفيظة روسيا. واستغل الرئيس الاذربيجاني الهام عليف بصورة جيدة الاستياء الروسي، ليوجه ضربته الجديدة الى ناغورنو كاراباخ، ظنا منه ان موسكو لن تستجيب لأي نداء مساعدة من باشينيان، وهو ما حصل. لكن الدعم القوي لاذربيجان جاء من تركيا، ومن خلفية قومية، اذ يعتبر اردوغان انهما امة واحدة ودولتان. وايدت اهداف الجيش الاذربيجاني في تصفية البنية العسكرية الارمينية في كاراباخ، والغاء ما تسميه باكو المنطقة الرمادية، وتصفية كل المسلحين الموجودين فيها، وتهجير سكانها الارمن.

قادت العملية العسكرية الخاطفة لاذربيجان في اقليم كاراباخ الى تكريس واقع جيوسياسي جديد في المنطقة. واسفر تثبيت السيطرة الاذرية على كاراباخ عن تداعيات واسعة النطاق سيكون لها تاثيرات كبرى في اللاعبين الاساسيين في جنوب القوقاز وفي مناطق محيطة بها. ولا شك في ان الانتصار الاذري عزز مواقع باكو بقوة، كقوة اقليمية صاعدة ومهمة، ستكون لها مكانة اساسية في كل الترتيبات الاقليمية اللاحقة، بما في ذلك، في اطار تحول اذربيجان الى عقدة ربط اساسية لطرق التجارة والعبور ونقل المواد الخام. وتحمل المعادلة الجيوسياسية الجديدة توسيعا للنفوذ التركي في المنطقة، وحضورا اقوى لاسرائيل مع الحليف الاذري، فضلا على تعزيز حضور وتحركات واشنطن في مقابل تراجع النفوذ الروسي والايراني.

نتائج حرب كاراباخ كرست تحالفا وثيقا وقويا للغاية بين انقرة وباكو.

النقطة الثانية المهمة التي تحسب بين خسائر روسيا المباشرة تكمن في انتهاء اهمية الدور الروسي في منطقة جنوب القوقاز بوصفها حافظا للسلام. ومن المتوقع ان تذهب اذربيجان لاحقا نحو طلب مغادرة قوات الفصل الروسية المنطقة بسبب انتفاء الحاجة اليها. وهذا بالتاكيد لا يصب في مصلحة موسكو التي لن تفقد فقط حضورا مؤثرا في منطقة حيوية بالنسبة اليها، لكنها سوف تتعرض بذلك الى خسارة جديدة لمواقعها ونفوذها في الفضاء السوفياتي السابق كله، بعد انقلاب اوكرانيا وجورجيا ومولدافيا الى خصوم، ومراوحة بلدان آسيا الوسطى على خط الحياد في مواجهة روسيا الحالية مع الغرب.

اللافت هنا ان تراجع مواقع موسكو في المنطقة يتزامن مع تنشيط التحركات الاميركية وتكثيف الاتصالات مع اذربيجان وارمينيا. ويبدو ان نشاط الولايات المتحدة الكبير يهدف الى تسريع

> **اخطا باشينيان في قراءة التحولات الدولية وانتقاله من الحماية الروسية الى الرهان الاميركي**

تحويل جنوب القوقاز الى منطقة واحدة تتجه نحو الغرب. وبين الاهداف الجانبية لواشنطن ايضا احتواء ايران على حدودها الشمالية، وخلق الظروف الاكثر ازعاجا لمشاريع النقل

واللوجيستيات المشتركة التي تروج لها موسكو وطهران في المنطقة.

بشكل او بآخر يمكن عد عملية حسم الوضع في كاراباخ واحدة من النتائج المباشرة للحرب الاوكرانية. وهنا وقعت مفارقات لافتة، فمن ناحية ادت العملية العسكرية الروسية في اوكرانيا الى تجديد امكانية استخدام القوة لتغيير الحدود، واسهم في ذلك شلل النظام الدولي، لكن من ناحية ثانية، فقد شكل الحسم الاذري للصراع ضربة قوية لمفهوم حق تقرير المصير للشعوب، وهو المبدأ الذي عملت روسيا من خلال قضم اجزاء من اوكرانيا على تقديمه على مبدأ اخر نصت عليه المواثيق الدولية، ويقوم على احترام سيادة الدول.

النتيجة المأساوية كانت ان ارمن ارتساخ دفعوا ثمن الصراعات والمصالح الدولية، وكانوا وقودا لها وسقطوا في لعبة الامم، وكانوا من ضحاياها، وتركوا لمصيرهم. العالم دعاهم الى الانخراط في عملية السلام والاندماج مع اذربيجان. ولكن ما اعتبره العالم سلاما اعتبروه استسلاما لم يترك لهم من خيار الا الرحيل النهائي تاركين وراءهم ارضهم وتاريخهم وكل شيء.

المشاهد كشفت صورة بالغة المأساوية في الاقليم. مشاهد احراق سكان كاراباخ معظم المؤسسات الرسمية، وما تحتويه من وثائق وارشيف ومستندات مهمة. وشكل ذلك خطوة على طريق اخلاء المقاطعة من سكانها الارمن، والهجرة الجماعية منها في اتجاه ارمينيا.

مشهد النزوح القسري لارمن ناغورني كاراباخ من الاقليم الى ارمينيا يعيد الى الاذهان مشهدا متكررا عبر التاريخ لجماعة عانت الاضطهاد كثيرا ولم تعرف الاستقرار يوما. هذا المشهد يختصر الوضع بكل ابعاده: الارمن خسروا ارضهم وخرجوا منها. هذه الارض التابعة قانونيا وجغرافيا لاذربيجان، والتابعة لارمينيا تاريخيا ووجدانيا. دفع ارمن كاراباخ ثمن صراعات وتقاطعات المصالح الاقليمية والدولية التي كانوا وقودا لها. وجدوا انفسهم امام خيارين: اما الاندماج او الرحيل. فاختاروا النزوح الى ارمينيا التي لم تحسن ضمان امنهم ووجودهم ولا وقراءة التحولات الدولية. ورفضوا الاندماج في المجتمع الاذري الذي راوا فيه تذويبا لخصوصيتهم وثقافتهم.